نحو منهج لغوي مقصدي في التعامل مع نصوص الوحي

أحمد شيخ عبد السلام*

لمعرفة لغة نصوص الوحي واستيعاب خصائصها أهمية كبرى في اكتساب الكفاءة لفهم الخطاب الإسلامي وتمثله في الواقع الإنساني. حيث يتم الربط بين هذا الخطاب وبين الواقع الذي يعالجه باستمرار بمعرفة خصائص هذا الواقع، واستلهام أحداثه بالاستعانة بالخبرات التاريخية المتراكمة، كما تتحقق معرفة اللغة بوصلها بالأوجه المعتادة المتعارف عليها لاستخدامها، هذا ولقد استوعبت البحوث اللغوية علاقة اللغة بالإنسان في تعامله مع وقائع حياته، معبراً عن أفكاره، وأحاسيسه، وعلاقاته الاجتماعية، محققة التكامل مع العلوم الإنسانية الأخرى التي تدرس الإنسان، وأوجه نشاطه المختلفة، من: اجتماعية، وثقافية، ونفسية، واتصالية، وتاريخية، ودينية، وما سواها، وهي كلها علوم بينها صلة تأثير وتأثر.

وحالياً لقد اتسعت رقعة الدرس اللغوي الحديث لتشمل مجالات علمية متعددة، وأضحت وظيفة الدرس اللغوي أكثر بروزاً في مباحث البناء الحضاري، والتقدم الفكري. ولا يمكن تجاهل أثر اللغة وأهمية دراستها في المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر الذي ينطلق من المفاهيم المعرفية التأصيلية المستندة إلى تجديد الاتصال بنصوص الوحي، والهادفة إلى البحث عن حلول إسلامية للمشكلات المعيشية المتجددة. وفي هذا الانطلاق تأكيد على صلاحية هذه النصوص للتطبيق في مختلف الأزمنة والأمكنة والأوضاع. وللغة وعلومها موقع مركزي في تأسيس برنامج تكاملي لاستنباط الأحكام الشرعية المعالجة لقضايا الواقع الإنساني، واستكشاف السنن الكونية والحقائق العلمية من نصوص القرآن

* الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها ، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

الكريم والحديث النبوي الشريف، وتحليل النصوص التراثية المبينة لها.

والهدف من هذا البحث تقديم فكرة أولية لمنهج لغوي خاص للتعامل مع نصوص الوحي بمدخل يبين أهمية اتخاذ الدرس اللغوي أداة علمية لتحليل هذه النصوص واستنباط المفاهيم الحضارية منها، من أجل الوقوف على مقاصد الشارع من تطبيقها، وكذلك الإسهام في محاولات وضع ضوابط التعامل مع نصوص الوحي على أسس لغوية. وليس المقصود دراسة نصوص الوحي دراسة لغوية بحتة. وبما أن الأفراد قد يختلفون في منطلقاتهم في التعامل مع النص اللغوي، فإن الكاتب يأمل أن يكون منهج التحليل اللغوي المقصدي المقترح أداة مناسبة للتعامل مع النص القرآني والنبوي.

تعني صفة "المقصدي" للمنهج اللغوي أن يسعى التحليل اللغوي إلى بيان المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وأخراهم من خلال النصوص التي تتحدث عن الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات، ويسعى إلى بيان المفاسد التي تدل عليها النصوص التي تتناول المخالفات في سائر التصرفات. والمنهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم باستخدام طائفة من القواعد العامة التي ترشد العمليات العقلية.[١]

ويقصد "بالوحي" هنا الخبر الصادق المخبر به عن الله سواء كان مباشراً وهو القرآن الكريم، أو غير مباشر وهو السنة النبوية الشريفة.[٢]

والنص "هو الكلام الذي يفهم منه المعنى، سواء كان من نصوص القرآن أم السنة.[٣] ويعني التعامل مع النص محاولة تفهم النص والوقوف على المقصد من إيراده من أجل ربطه بالوقائع المعيشة وتطبيق رسالته عليها، والانطلاق منه في الحياة العملية. وليس هذا البحث إلاّ محاولة لتحقيق نوع من التكامل بين تلك الجهود التي بذلها المفسرون والأصوليون وشراح الحديث النبوي في فهم نصوص الوحي، وبين الجهود التي بذلها اللغويون في فهم هذه النصوص، وما يمكن أن يستفاد من دراساتهم في تحليل الأسلوب والنصوص والخطاب.

---

١ أحمد بدر، **أصول البحث العلمي ومناهجه**، (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨٢)، ص٣٣.

٢ انظر: يوسف حامد العالم، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، (الرياض: الدار العلمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤)، ص٣٤٣-٣٤٤.

٣ بدران أبو العينين بدران، **أصول الفقه الإسلامي**، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤)، ص٤١٧.

اللغة مصدراً للمعرفة:

تشمل مصادر المعرفة بصفة عامة الفكر المنطقي، والملاحظة، والتجربة، والخبرات المتراكمة، والأحداث الكونية، والعلاقات الإنسانية، والممارسات الثقافية، وما سواها. وهي مصادر يصل الإنسان بوساطتها إلى فرضيات يمكن اختبارها بأساليب منهجية منظمة تحدد باختلاف المجالات المعرفية التي تندرج فيها هذه الفرضيات، للوصول إلى نتائج أو نظريات تصاغ في ضوئها مقولات علمية معينة.[٤]

يتكامل في البحث عن المعرفة الإسلامية كل من الوحي والعقل والكون.[٥] ويتضح موقع اللغة من هذه المعرفة في أنها تتم في ضوء توجيهات الوحي والمفاهيم التي يستنبطها العقل منها. وبعبارة أخرى يتم فهم الخطاب الحضاري الإسلامي وتطبيقه في ضوء العرف اللغوي العربي في استنباط الدلالات من الوحدات اللغوية، وفي حدود الاستخدام اللغوي المسموح به، بغض النظر عن عالمية الرسالة الإسلامية وارتباطها بالممارسات العملية، والامتداد اللانهائي للأبعاد التاريخية والموضعية لنصوص الوحي. إن اللغة بوجه عام وعاء للنشاط المعرفي، وأداة للفعل الحضاري، ووسيلة للتكوين الثقافي، ومنبر للتطور الفكري، وسبيل للتفاعل العقدي، ومفتاح للمخزون الثقافي، ومقوم من مقومات الكيان الإنساني.

وتفهم أهمية اللغة العربية بالنسبة لنصوص الوحي من هذا المنطلق. وهل يصح عدها مصدراً للمعرفة الإسلامية لا مندوحة عنه لمن يطلب الحقائق المعرفية الإسلامية؟ ويتوجب على أي باحث عن المعرفة الإسلامية أن يلم بأساليب العرب في بناء النصوص بقصد فهم الوحي والبيان النبوي له، والتعرف على عاداتهم، وأوجه تعاملهم باللغة، وفهم الظواهر اللغوية الخاصة بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث الإسلامي المكتوب وذلك لخدمة الرسالة الإسلامية، ونشرها، وتطبيقها على وقائع حياة الناس المتجددة. مع العلم بأن المصطلحات والمفردات والتراكيب الخاصة بكل لغة لها دلالاتها الخاصة، وظلالها الملتصقة بكيان أصحابها، وتفاعلهم الحضاري، واتجاههم الفكري، والعقدي.[٦]

---

4 M. A. K. Halliday, A. McIntosh & P. D. Strevens, *The Relation between Observation and Theory*, in J. P. B. Allen & S. Pit Corder, (ed.) (1973) *Readings for Applied Linguistics*, The Edinburgh Course in Applied Linguistics, vol.1, Oxford University Press, p. 209- 211.

٥ عبد الحميد أحمد أبو سليمان، **أزمة العقل المسلم**، (الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٢)، ص١١٦-١٢٧.

٦ انظر: عمر عبيد حسنة، **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٥، ص١٣٠-١٤٢.

ومن المسائل المرتبطة باللغة بوصفها مصدراً للمعرفة: أن المصدر الأساسي لمعرفة متكلم اللغة بالأعراف اللغوية لدى أفراد مجتمعه اللغوي هو الحدس، وهو أمر ظني يصعب اختباره أو التثبت منه،[٧] وأن الرسالة الإسلامية إنسانية عالمية مرنة لا تتقيد بفهم أي جماعة من الجماعات الإسلامية، أو فرد من الأفراد، فضلاً عن أن النص اللغوي يمثل انعكاساً للملامح الفكرية لأصحاب اللغة، وعدم وجود صلة مطردة بين التطور اللغوي والتطور الفكري الثقافي، وهي كلها مسائل قد لا تؤيد اعتبار اللغة العربية.مصدراً للمعرفة الإسلامية، بل إنها ناقلة للمعرفة الإسلامية.

تمثل بنية اللغة البنية الثقافية الحضارية، وتشكل كل لغة مظاهر رقي شعبها، وتسجل التطور الذي قطعه، ولا يمكن الفصل بين اللغة والإنسان الذي يتكلم بها، وفكره، وعاطفته، ووسطه الاجتماعي، ومستواه الحضاري. وللغة تأثير في الالتئام الاجتماعي والوحدة الدينية والثقافية، والشخصية القومية.[٨] ولكنه لا يصح في التعامل مع نصوص الوحي القول بأن البنية اللغوية هي التي تحدد الفكر وتسيطر عليه سيطرة كاملة. وأن اللغة هي التي تجعل مجتمعاً ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلاّ من خلال لغته.[٩] إن مضاعفات هذا الرأي خطيرة على فهم الخطاب الحضاري الإسلامي؛ حيث يقتضي اختلاف تطبيقات التوجيهات الربانية، والإرشادات النبوية نظراً لاختلاف اللغات والخلفيات الثقافية. أو يقتضي، بالأحرى، ألاّ يتمكّن من فهم أبعاد هذا الخطاب إلاّ العربي القحّ؛ إذ إن غيره ممن يمتلكون لغتين أو أكثر تختلط المفاهيم لديهم باختلاف خلفياتهم اللغوية والثقافية، أو أن العربي الناشئ على لهجة غير اللهجة الفصيحة قد لا يصل إلى عمق هذه الأبعاد.

للشعوب الإسلامية إسهامات مهمة في بناء الحضارة الإسلامية وردت بلغاتهم، أو باللغة العربية التي تعلموها.[١٠] وإذا كانت اللغة العربية قد احتضنت الحضارة الإسلامية

---

٧ صبري إبراهيم السيد، **تشومسكي: فكره اللغوي وآراء النقاد فيه** (إسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)، ص٧٥-٧٦ و٢٦٥-٢٦٦.

٨ عبد الله شريط، **الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون** (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥)، ص٥٧١-٥٧٥.

٩ انظر: صالح الكشو، **مدخل اللسانيات** (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥)، ص١١٧.

١٠ راجع: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، **كتاب المؤتمر العام الثامن: مشاركة الشعوب الإسلامية في بناء الحضارة الإسلامية** (عمان: مؤسسة آل البيت، ١٩٩١)، (وفيه مباحث عن مشاركة اللغة العربية واللغات الإسلامية غير العربية في الحضارة الإسلامية).

بكل دقائقها، ومظاهرها، وعلومها، ومعارفها، فإن لغات أخرى مثل الفارسية، والأوردّية، والتركية، والملايوية، والبنغالية، والسواحلية، ولغة الهوسا، بل والإنجليزية قد أسهمت في التبادل الفكري، والثقافي، والتطور الحضاري بين الشعوب الإسلامية أنفسهم، وبين غيرهم، ولها تأثير في تشكيل المعرفة الإسلامية، وتطبيق الرسالة الإسلامية.

أعان أثر الانتماء الحضاري في تعلم اللغة، واكتساب القيم الثقافية، والمقومات الحضارية على اعتبار اللغة العربية لغة الوحدة الإسلامية. وقد كان المسلمون منذ عهد بعيد يصرون على أنه لا يمكن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى ترجمة مرضية، فكان على من أسلم من غير العرب أن يقرأ القرآن بالعربية، أو أن يحفظه. ويرى بعض العلماء أن الإسلام لا بدّ أن يؤدي إلى معرفة اللغة العربية. وساعد هذا التوجه على خلق الإسهام المتميز لغير العرب في الحضارة الإسلامية، سواء كان الدافع هو إثبات الانتماء الإسلامي، أم مواصلة ما قد أسهموا به بلغاتهم في الحضارة التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام، أم غير ذلك.[١١]

فهم نصوص الوحي وتفسيرها:

ليست النصوص مجرد ألفاظ تتآلف لتحمل دلالات معينة فحسب، بل إن لها أبعاداً أخرى أعمق، وعمليات نفسية وفكرية سابقة، ولا يتيسر فهم النصوص وتفسيرها إلاّ بالإلمام بالأعراف اللغوية، والقيم الثقافية، والمفاهيم الفكرية، والأفعال الاجتماعية، والخبرات الإنسانية التي تؤلف العالم الخارجي للمتخاطبين بلغة هذه النصوص. وتمنح عربية نصوص الوحي مكانة بارزة للمعرفة اللغوية العربية؛ إذ تتوقف صحة فهم الخطاب القرآني على إجادة هذه اللغة والتمكن منها، وقد أكد كثير من العلماء أهمية اكتساب الإجادة العالية للّغة العربية والتبحر في علومها من أجل الاشتغال بمعارف الوحي.[١٢] وسعة المعرفة اللغوية لدى المشتغل في معارف الوحي عامل مؤثر

---

١١ راجع: مونتجومري وات، **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، ترجمة: حسين أحمد أمين، (دمشق: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٦)، ص١٨-٢٣ وغيرها.

١٢ انظر: أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، (بيروت: دار الفكر العربي)، ج٤، ص٦٢ وص١١٤-١١٨.

مهم في سعة معرفته بمجال تخصصه، والعلاقة بينهما طردية.

ومن مستلزمات تحقيق النظرة الموضوعية المتكاملة في فهم نصوص الوحي الاستعانة بالسياق في توضيح مضمونها ومعرفة معهود العرب في الخطاب.[١٣] وتستدعي معرفة هذا المعهود الخطابي درجة من المقدرة اللغوية في ممارسة لغة العرب، والمعرفة اللغوية التخصصية، فضلاً عن المعرفة بالمواقف الخطابية المصاحبة، وفهم الوقائع الاجتماعية الحاضرة.

إذا كان الإعجاز النظمي للقرآن الكريم مقصوداً لذاته لدى نزوله، فإن خلود هذه المعجزة لا يتوقف على الخصائص النظمية مجردة عن الفكر والمضمون، ولا باحتذاء أساليبه النحوية والبلاغية، أو حمل الناس على التزام قواعده. فللّغة مستويات، ولها مواقع ومناسبات، والأسلوب القرآني أرقى نماذج اللغة العربية بخصائصه المتميزة. وقد تعددت قراءات القرآن الكريم تيسيرا لتداوله وفهمه لمختلف الطبقات، والمجموعات اللغوية العربية الفرعية إبان نزوله. ومن الأهمية الالتفات إلى أن نظرية النظم في بيان الإعجاز القرآني مبنية على أساس الربط بين الخصائص التركيبية والمعاني المقصودة من النص وتراكيبه.[١٤]

ولا تنحصر أهمية الحديث النبوي للنص القرآني في بيان التوجيهات الربانية، بل تشمل الأهمية اللغوية في شرح ألفاظ القرآن الكريم وبيان أساليبه، وفي تقديم توضيحات تطبيقية وتفصيلية لما كان مجملاً في القرآن. وتزداد أهمية الحديث الشريف بعد العهد النبوي وبعد التلقي الشفهي للقرآن الكريم وتحوله إلى نص مكتوب يحتاج بطبيعته إلى روافد من أمثلة العناصر فوق اللغوية التي صاحبت نزوله من المواقف الخطابية، لكي يعطي مزيداً من البيان والتوضيح، وليتم فهم أبعاده. فلا يمكن فهم تطبيق النص القرآني على الواقع بدون السنة النبوية.[١٥] فالسنة تكشف خصائص الواقع الذي كان رسول الله ﷺ يتعامل معه ويتحرك فيه، ويمثل رسول الله ﷺ تجسيداً

---

١٣ محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن الكريم** (في مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة)، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١)، ص٢٣٧.

١٤ عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ط٦، ١٩٦٠)، ص١٧٣.

١٥ "إن السامع للكلام مشافهة غالباً ما يكون أدرى بمقصود المتكلم ممن نقل إليه الكلام، وربّ مبلغ يكون أوعى من السامع، وهذا قليل نادر. ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أدرى الناس جميعاً بمقاصد الشارع.." (يوسف حامد العالم، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، ص١١١).

لمنهجية الربط بين القرآن والواقع.[١٦] ويوضح الشكل الآتي أهمية السنة النبوية في فهم القرآن الكريم:

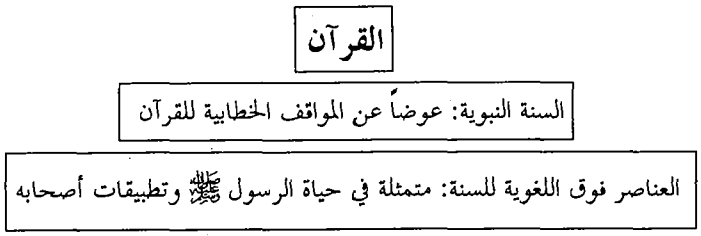

إنّ لوجهة النظر التي يحملها المتكلم ـ المخاطب عن الألفاظ والتراكيب المستخدمة في الموقف الخطابي أثر في نقل الأحداث والأفكار ووصف الموقف منها. فالمتكلم أو المخاطب قد يقدمان الأحداث بوصفهما مشاركين فيها، فيخدمان المقصد الخاص، أو المصلحة الجماعية. ويبرز هذا بوضوح في المناقشات الفكرية التي تبرر توجهاً معيناً في عمل، أو حدث، أو منهج حياة. وقد تبرز وجهة النظر دون شعور في التعامل اللغوي اليومي.[١٧] ويمكن أن يتحدث الناس بوضوح عن وجهات نظرهم، ولكنها ترد ضمنياً في أغلب النصوص.

وفي صدد التعامل مع نصوص الوحي، هل يمكن التعرف على المعنى الذي يقصد الشارع بأكمله في نص من النصوص؟ إن نصوص الوحي في أغلبها ظنية الدلالة؛ لأن تراكيبها تتوقف على الاستعمال اللغوي المتعارف عليه، والآراء النحوية، والاستعمالات المجازية والاصطلاحية، وغيرها مما له دلالات محتملة.[١٨] وهذه خاصية تترك فرصة واسعة لمحاولات فهم المعاني المحتملة لهذه النصوص، وتؤدي إلى تعدد التفسيرات المقدمة لهذه النصوص طبقاً لخلفيات القراء، وثقافاتهم، وانتماءاتهم، وأغراضهم التي وراء هذه القراءة. وقد لا تنتج هذه القراءات قراءة واحدة نموذجية تمثل الفهم الأصح للنصوص الظنية الدلالة. يلحظ من جانب آخر وجود ما عرف بـ "معنى المتكلم"، فمعنى الكلام هو ما يعتقد المتكلم أنه ينقله باستخدامه للكلمات أو الجمل، سواء اعتقد أن مستمتعيه يعتقدون أنه ينقل هذا المعنى أم لا.[١٩] ويستوي عنده

---

١٦ انظر: طه جابر العلواني، **إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم** (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦)، ص٢٣-٢٦.

١٧ انظر: John Haynes, (1989) *Introducing Stylistics*, Unwin Hyman, London, pp. 118-123

١٨ للوقوف على مثل هذه الفكرة، راجع: أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، ج١، ص٣٥-٣٦.

١٩ انظر: David E. Cooper, (1986) *Metaphor*, Aristotelian Society Series, vol. 5, Basil Blackwell, Oxford, P.45-51, 66

أن يتوصل المستمعون أو المتداولون لكلامه إلى ما يقصد من كلامه أم لا. ولهذه الفكرة تبعات في التعامل مع نصوص الوحي، وفي ترجمتها؛ إذ يقتضي عدم إمكان الجزم بمعاني هذه النصوص لأي فرد غير المبعوث إليه بهذه النصوص. ولكن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، والخطابي، والباقلاني، وعبد الجبار من قبلهم، تقدم حلا يفيد أن ترتيب الألفاظ في العبارة خاضع لترتيب المعاني في النفس، وتؤدي العبارة وظيفتها الدلالية بوضع كل لفظة في المكان الذي تتطلبه القواعد النحوية.[٢٠] وهذا يثبت أهمية النظرة اللغوية المعهودية، كما سيأتي في هذا البحث.

تحمل نصوص الوحي مضامين أريد لها أن توجه حياة البشرية، وأن تكون مناسبة لمختلف الظروف والأزمنة. وهي مضامين تخاطب العقول وتناجي القلوب، وتستدعي صياغتها أو إعادة هذه الصياغة، أو القراءة، أو إعادة القراءة منهجية علمية محكمة، وإجراءات ذهنية واقعية تربط بين النصوص والظروف والأحوال المتاحة لتطبيقها، وتبرز المقاصد والغايات العليا من ورودها. وإذا علم بأن الوحي من الله علام الغيوب الذي هو العليم فوق كل ذي علم، وأن الموحى إليه عليه الصلاة والسلام الموكل ببيان هذا الوحي لم يكن لينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحَى إليه، فإن القراءات والصياغات المتاحة لنصوص الوحي تحمل ملامح عقول أصحابها، وتمثل المفاهيم التي يتبنونها، بغض النظر عن قربهم أو بعدهم عن المعاني التي تولدها القراءة النموذجية لهذه النصوص. فالتفسير الذي يقدمه السامع أو المخاطب للكلام قد يتفق مع التركيب الأصلي الذي يحمله المتكلم في ذهنه، وقد لا يتفق معه، وتفسير السامع يعني إعادة صياغة المعاني التي استفادها من الكلام، أو إعادة قراءته.[٢١]

وحول الاعتماد على عقول المخاطبين بالوحي في فهمه، أو تحديد مضامين نصوص الوحي ومقاصدها من خلال المفاهيم التي يتبناها المسلمون في العصور الإسلامية المتعاقبة، فإن شمولية دلالات هذه النصوص، ومرونتها، وعالميتها تترك مجالاً للاستنباط المتجدد لهذه الدلالات، أو المفاهيم، دون أن تؤثر في جوهر الرسالة، وحقيقتها، بل تؤكد قدرتها على العطاء المديد. وإذا أردنا أن نبحث عن العلاقة بين

---

٢٠ انظر: وليد محمد مراد، **نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني**، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص٥٦-٦٥.

21 Robert Hodge & Gunther Kress, (1993) *Language as Ideology*, Routledge & Kegan Paul, New York, p. 34.

تراكيب نصوص الوحي وبين العقل المكون والمحرك لها، فسنفحص في تمثل عقول المخاطبين لتراكيب هذه النصوص والعلاقات التي يؤسسونها بينها، وأساليبهم المتعددة في قراءتها، وصياغتها، وتحليلها؛ إذ لا سبيل إلى التعرف على الخلفية الذهنية لصياغة نصوص الوحي إلاّ من خلال تفهم عقول المخاطبين بها، بدءاً بالصحابة رضوان الله عليهم ووصولا إلى من يتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن تصور أي شيء يعني ربطه بفهم المتصور، وإدراكه، ومن ثمّ تكوين مبادئ ومواقف معينة تجاهه.[٢٢] وإن القدرة على استنباط الرسالة الصحيحة من الكلام يعتمد على معرفة المعلومات السياقية المتعلقة بالزمان الذي أجري فيه الحوار، والقصد منه، والتخطيط له.[٢٣] وإن الموقف الخطابي غير المحدود لنصوص الوحي يقتضي صلاحيتها ومناسبتها للأحوال والوقائع المتجددة للمخاطبين بهذه النصوص. وتقتضي هذه الخاصية احتمال ارتباط التفسير المعين أو القراءة بالخلفية الثقافية والظروف الزمانية والمكانية التي قدم فيها. وبما أن اللغة ظاهرة تجريبية تشتمل على الوقائع الاتصالية، فإن التركيب اللغوي قد يصعب أن يعدّ وصفاً لوقائع بعينها، وعلى الرغم من أن الهدف هو إيصال الأفكار من فرد لآخر فإن هذا الهدف لا يتحقق غالباً، ويترك هذا الوضع مجالاً لإعادة قراءة النصوص، وإعادة صياغة الأفكار المستنبطة منها.

أهمية الدرس اللغوي في التعامل مع نصوص الوحي:

تتمثل أهمية الدرس اللغوي في التعامل مع نصوص الوحي في قضايا منها: قراءتها، وإعادة قراءتها، وإعادة صياغة رسالتها، وتطوير معارفها.

تبدأ خطوات التعامل مع نصوص الوحي بقراءتها، أي فهمها واستيعاب رسالتها، ومعرفة دلالالتها الجزئية والكلية، والقطعية والظنية، ومفاهيمها الحضارية، والوقوف على مقاصدها الخاصة، والعامة من خلال تطبيقها في ضوء الظروف المحيطة بنزولها. وبما أن نصوص الوحي تحمل رسالة إلهية خاتمة أريد لها الصلاحية الخالدة فإن قراءتها تقتضي معرفة الكون والوقوف على أحداثه، وبذلك نوفق ونجمع بين قراءتين: قراءة النص وفهم مقاصده، وقراءة الكون واستيعاب وقائعه، أي الجمع بين القراءتين: قراءة

22 George W. Grace, (1987) *The Linguistic Construction of Reality*, Croom Helm, New York, p. 118
23 Jamal Ouhalla, (1994) *Introduction to Transformational Grammar: From Rules to Principles and Parameters*, Edward Arnold, London, p. 3

تستصحب الوحي في قراءة الكون وفهمه واكتشاف سننه، وقراءة تستصحب سنن الكون في فهم آيات الوحي، والتوفيق بين النص القرآني وبين المعرفة الموضوعية للكون والوجود.[٢٤] ويأتي دور الدرس اللغوي في أن النص لا يستقل فهمه عن فهم مناسبته ومعرفة المواقف التي يمكن أن يرد فيها.

من المعلوم أن الخطاب القرآني محدود النص والأسلوب، ولكن رسالته غير محدودة بزمان أو مكان، ولا يثبت خلود هذه الرسالة ومناسبتها للأحوال المتجددة إلا بإمكان إعادة قراءة النص القرآني، وتحليل مفاهيمه في ضوء هذه الأحوال. وقد استطاعت الأجيال المسلمة المتعاقبة أن تقرأ نصوص الوحي من خلال كسبها المعرفي وعطائها الفكري، فأدركت فيها أبعاداً لم تدركها الأجيال السابقة لها، وفي هذا الفهم المتجدد تأكيد لعدم انحصار القرآن في مدارك أجيال بعينها. إنه من الضروري تجديد قراءة هذه النصوص وتقديم تفاسير متجددة لها في ظل معطيات الكسب الفكري، والتقدم العلمي، والتطور الثقافي، ولا تصح القراءة إلاّ بإتقان لغة المقروء الذي يلجأ إليه لمعالجة مستجدات الحياة.

إن إعادة قراءة نصوص الوحي تأسيس للمفاهيم المستحدثة على أصول فهم السلف الصالح بما يسمح ببعث المفاهيم الجديدة عبر إحياء المفاهيم المكتسبة من المحاولة السابقة لفهم نصوص الوحي. فإعادة قراءة التراث تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن، وفي ذلك إثبات لدوام وجوده واستمرار صلاحيته. فإذا جاز تعدد المفاهيم المستفادة من الرسالة اللغوية بتعدد المتقبلين لها، وجاز تنوع إدراكهم لأنماطها حسب الظروف الآنية للرسالة، فإن القراءة أو إعادة القراءة قد تتعدد بتعاقب المتقبلين للرسالة والمفككين لبنائها عبر المحاور الزمنية والتاريخية.[٢٥]

وإذا اعتبرنا السنة النبوية الصحيحة البيان الأول للقرآن الكريم فإن إعادة صياغة الرسالة المستوحاة من نصوص الوحي تتمثل في محاولة الأفراد بيان هذه الرسالة وتقديمها للمسلمين، أو لغيرهم. ومحاولة إعادة تحديد مفاهيمهم الخاصة المستندة إلى ظروفهم التاريخية، والمستفادة من الفهم العام للخطاب الإسلامي، ومن الخبرات التاريخية للأمة الإسلامية. ولا شك أن معرفة اللغة العربية ضرورية، بل واجبة لتقديم

---

٢٤ طه جابر العلواني، **إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم**، ص١٣-١٨، وانظر: بديع الزمان سعيد النورسي، **المثنوي العربي النوري**، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، (استنابول: دار شوزلر للنشر، ط٢، ١٩٩٤)، ص٥٥.

٢٥ عبد السلام المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨١)، ص١٢-١٣.

رسالة الخطاب القرآني أو البيان النبوي عبر المراحل التاريخية للأمة الإسلامية، وقد تتم إعادة صياغة الرسالة باللغة العربية، أو بلغة من اللغات الإسلامية، دون الاعتماد على الترجمة، كما يحدث للكثير من ثنائيي اللغة.

تحتاج أمهات الكتب العربية الموضوعة حول الرسالة الإسلامية وتبليغها للناس إلى إعادة صياغة مضامينها، وإعادة قراءتها قراءة نقدية تحليلية معرفية تمكنها من مخاطبة الناس بلغاتهم التي اصطلحوا عليها، وبالمستوى الفكري الذي وصلوا إليه، فنعالج قضاياهم بأمثلة من وقائع حياتهم. وتتطلب مهمة إعادة الصياغة العودة إلى النصين القرآني والنبوي مع الاستفادة مما أنتجه العقل المسلم عبر العصور التاريخية في معالجة قضايا الأمة ووقائعها، وتجاوز الرفض أو القبول المطلقين، أو سوء فهم التراث بهدف التواصل الحضاري الواعي المبني على خاصية انطلاق التراث من نصوص الوحي، وما تتضمنه من حقائق.[٢٦]

تؤدي محاولة القراءة وإعادة القراءة والصياغة إلى تطوير معارف الوحي وبخاصة في أساليب استنباط هذه المعارف من خلال دلالات نصوص الوحي، كما تفيد في تحقيق التكامل بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية في ضوء من الفهم العميق للنصوص، فلا تستقل معارف الوحي عن المعرفة اللغوية وما يتعلق بها من العلوم، كما أنها لا تستقل عن المعارف الإنسانية بصفة عامة؛ لأنها هي المفاتيح لفهم الواقع الذي تهتم معارف الوحي بمعالجته. وتجدر الإشارة إلى أن تراكيب نصوص الوحي تحمل مقاصد مستندة إلى معلومات متداولة بعينها يتوقع من المخاطبين بهذه النصوص تفسير هذه التراكيب في ضوء معلوماتهم التداولية الخاصة، ويتأكد فهمهم لها من خلال محاولتهم إعادة صياغة هذه التراكيب في نصوص تفسر مقاصد نصوص الوحي الأساسية.

إسهام المناهج التراثية:

تزامنت العلوم الإسلامية بوجه عام في النشأة، والتقت في الهدف، وتقاربت في المنهج، واشتركت في مجالات خدمة القرآن الكريم والحديث الشريف والعقيدة الإسلامية. وأسهمت المناهج اللغوية التراثية في فهم النصوص القرآنية التي نشأت من أجل خدمتها، وبيان رسالتها. وقد قدمت خدمة جليلة في توضيح معاني مفردات الأحاديث النبوية، إضافة إلى الشروح المقدمة لها.

---

٢٦ انظر: عبد الحميد إبراهيم المحالي، **مدى الحاجة إلى تطوير محتوى مادة الفقه**، في: فتحي الملكاوي ومحمد عبد الكريم أبو سل، **بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات**، (عمان: المعهد العالي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ)، ص٥٣٣-٥٩٥.

وجدّت محاولات ثرية في فهم نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي محاولات استفادت من البيئة العلمية والتوجهات الثقافية لأصحابها، ولا تكمن المشكلة في محاولات توضيح دلالات نصوص الوحي وإحالاتها، وبيان خصائصها التركيبية والأسلوبية لذاتها، بل في عدم مواكبة هذه المحاولات في أغلبها في العصر الحديث للتطورات المستجدة في تحليل معاني المفردات ودراسة التراكيب اللغوية. ولا شك أن الحاجة ماسة إلى إدراج القيم الثقافية والفكرية والاجتماعية التي قد تؤثر في الرسالة الحضارية للنصوص المفسرة وإبرازها فضلاً عن الاهتمام ببيان دلالات ألفاظ القرآن الكريم، والخصائص البيانية لتراكيبه وأساليبه وإبرازها، وتقرير إعجازه النظمي.

فإذا ما تم الانطلاق من صلة دلالات القوالب الشكلية وإيحاءاتها والأفكار التي تتضمنها بالمعلومات عن المشتركين في المواقف الخطابية، من معتقدات، وقيم ثقافية، وعلاقات اجتماعية، وظروف زمانية ومكانية، وبيئات مادية وإنسانية، ومصالح مشتركة في تفسير النصوص القرآنية وتبيان الأحاديث النبوية وكلما كانت الرؤية حضارية ومتكاملة أمكن الجمع بين منطوق النصوص ومفاهيمها ومقاصدها.

يمتد إسهام الدرس اللغوي التراثي إلى التحليل الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، والدرس المعجمي القرآني. ويمثل منهج علماء القراءات محاولة علمية جادة في توجيه التعامل مع المرونة اللغوية الداخلية للقرآن الكريم الهادفة إلى تأسيس التنوع اللغوي لقراءاته وفهم آياته، ويتمثل التنوع القرائي في الأوجه المروية عن الرسول ﷺ. وإن قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه عمر بن الخطاب ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه"[٢٧]، وما ينقل من اختلاف بعض القراءات في الألفاظ، أو في الأصوات التي قد تؤدي إلى اختلاف بعض الخصائص الدلالية للألفاظ أو اختلاف الدلالات تدل على أن هذا القرآن قادر على احتواء التباين الداخلي في التعامل مع آياته، واستنباط المفاهيم الحضارية منها، وذلك في إطار وحدة العقيدة، والتقارب في تطبيق مفاهيم الخطاب الإسلامي العام. وقد أسهم التفسير البياني للقرآن في خلق نوع من التفسير اللغوي التطبيقي محققاً المزج بين الدرس اللغوي وبين الدرس العقدي والفلسفي يمثل

---

٢٧ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** (لاهور: دار نشر الكتب الإسلامية، ١٤٠١هـ)، ج٢، ص٢٣، (كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف).

نموذجاً حياً للدرس اللغوي الموسع، بغض النظر عما أخذ على هذا النوع من التفسير.[٢٨] واعتمد المفسرون بمختلف مشاربهم دلالات المفردات والتراكيب والأساليب في تقديم مفاهيمهم للنصوص القرآنية. وفعل شرّاح الحديث مثل ذلك.

هناك تحليلات أصولية فقهية وفلسفية واجتماعية وغيرها مما يلتقي فيه الدرس اللغوي بغيره من المجالات العلمية. ويعدّ المنهج الأصولي محاولة لتفسير النصوص القرآنية والنبوية المتعلقة بالأحكام الشرعية وفق أسس لغوية ومنطقية. حيث نظر الأصوليون في النص الذي يستنبط منه المعنى الشرعي، ودرسوا ما وراء المعنى، وما يحيط به من قرائن، كما نظروا في تدرج النص وارتباطه بالمعنى، وفي قوته على حمل الدلالة. متناولين في دراستهم لطرق استنباط الأحكام من النصوص اعتبار وضع اللفظ في معنى خاص أو عام، واعتبار استعمال اللفظ في المعنى الموضوع له من حقيقة أو مجاز، وظهور المعنى المراد من اللفظ أو خفائه. كما درسوا كيفية دلالة اللفظ على المعنى، فاعتبر الحنفية أربعة أنواع منها هي: عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، ودلالة الاقتضاء، واعتبر الشافعية نوعين هما: دلالة المنطوق ودلالة المفهوم، وقسمت دلالة المفهوم قسمين: دلالة الموافقة ودلالة المخالفة.[٢٩] ورأى الأصوليون أن دلالة النصوص نوعان: حقيقية، وإضافية: فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. والدلالة الإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره، وقريحته وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك.[٣٠]

من جانب آخر يلحظ بصورة واضحة احتكام الفقهاء والأصوليين وعلماء الدين الإسلامي إلى القرائن الموقفية والعقلية في تحديد دلالات النصوص وتقدير الحكم والمقاصد والمصالح التي يعمل الشرع على تحقيقها، والمفاسد التي يسعى إلى درئها.[٣١] وفي ذلك انطلاق من ظاهر النصوص إلى رسالة المعاني التي تريد إبلاغها للبشرية، وعود إلى الفهم الذي كان سائداً في العلاقة بين النصوص وواقع المسلمين في عهد الرسول ﷺ.

---

٢٨ يمثل صنيع الزمخشري في **الكشاف** محاولة لاستثمار الدرس اللغوي البياني في الدفاع عن المذهب العقيدي، كما أن صنيع الرازي يعد محاولة للربط بين الدرس اللغوي البياني وبين الدراسة العقدية والفلسفية.

٢٩ راجع: بدران أبو العينين بدران، **أصول الفقه الإسلامي** (١٩٨٤)، ص٣٤٧-٤٣٩.

٣٠ يوسف حامد العالم، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية** (١٩٩٤)، ص١١١.

٣١ أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة** ، ج٣، ص١٥١-١٥٢.

إفادة من المناهج اللغوية الحديثة:

إن فحص بعض المناهج اللغوية الحديثة سيفيدنا في اختيار الأسس اللغوية وتكوين ملامح التحليل في منهج لغوي خاص للتعامل مع نصوص الوحي بصفة خاصة، وهي أسس مضافة إلى ما يوجد في الدرس اللغوي التراثي. فالمناهج اللغوية تتكامل مع بعضها البعض في تقديم وصف متكامل عن النص اللغوي.

تتمثل الأصول الفكرية للنظرية الوظيفية[٣٢] في أن اللغة الطبيعية وسيلة للتعامل أو الاتصال الاجتماعي، وأن وظيفتها هي تأسيس الاتصال بين مستخدميها، وأن العلاقة بين نظام اللغة واستخدامها أن اللغة لا تؤدي وظيفتها منعزلة عن ظروف استخدامها، وبذلك تفهم التعبيرات اللغوية فهماً جيداً. ومن هذه الأصول الاهتمام بدراسة اللغة في تطورها في التعامل الاتصالي، واعتبار المعلومات التداولية محوراً عاماً جامعاً للتحليل الوظيفي وعلم النحو وعلم الدلالة.[٣٣]

والمعلومات التداولية هي مجموع المعرفة والمعتقدات والتخمينات والأفكار والمشاعر الموجودة لدى الفرد في لحظة من لحظات التعامل اللغوي. ولها محتويات ثلاثة: معلومات عامة عن العالم والثقافة والطبيعة، ومعلومات موقفية مأخوذة عن المشاركين، سواء أخذت من الاحتكاك أو التوقع من مواقف التعامل، ومعلومات سياقية مستفادة من العبارة اللغوية المتبادلة، قبل أي تعامل لفظي أو بعده.[٣٤]

ويبحث منهج تحليل الخطاب في وسائل تحقيق الوظيفة النصية في الخطاب. وينظر في محاولة المتكلم استغلال الإمكانات اللغوية لعقد تتابع من المعاني في تأليف نص بعينه بطريقتين هما التماسك والتطابق.[٣٥]

تدرس الأسلوبية الوظيفة الاجتماعية للغة، وهدفها وصف خصائص النص بوصفه جزءاً من عملية الاتصال. وتهدف إلى فحص وبيان كيفية استخدام إمكانات الرمز اللغوي لإنتاج رسالة حقيقية، تهتم بوصف أنماط استخدام النص اللغوي في الاتصال. وترى أن مستخدم اللغة يكتسب نوعين من المعرفة: معرفة قواعد الرموز اللغوية ومعرفة

---

32 Simon C. Dik, (1989) *The Theory of Functional Grammar*, part 1: The Structure of the Clause, Foris Publications, Holland, p. 4-7

٣٣ أحمد المتوكل، **اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري** (الرياض: منشورات عكاظ، ١٩٨٩)، ص١٢.

٣٤ Simon C. Dik, Ibid., p. 9 وأحمد المتوكل، المصدر السابق، ص١٦-٢٥ وما بعدها.

35 John Haynes, Ibid., p.32-36

العادات التي تحكم استخدام هذه القوانين في إنتاج الرسائل الكلامية. فالمعرفة الأولى تؤكد أن الكلام موافق للقاعدة، والمعرفة الثانية تؤكد أن ما يقوله مناسب. والمعرفتان مهمتان إذا أراد مستخدم اللغة إجراء اتصال فعّال مع رفقائه، ومن الواضح أن الرسالة ينبغي أن تنتج بالتوافق مع الأنظمة والأعراف الاجتماعية، وإلا أصبحت غير مفهومة.[٣٦]

إن العناصر فوق اللغوية في النطق تعبر عن موقف المتكلم مما يقول، أو ممن يوجه الكلام إليه، إذ إن الكلام هو أهم عنصر في الاتصال في الموقف اللغوي الحقيقي، فتكون الأعباء ملقاة على العناصر فوق اللغوية، ووظائف هذه العناصر مهمة. أما في اللغة المكتوبة فإن هذه الوظائف تؤدى بالرموز اللغوية، ويعوض عن العناصر فوق اللغوية باستخدام علامات الترقيم، وأشكال وأنواع الخط وتكبيره ودقة تصويره وتناسقه ووضوحه، أو غير ذلك من الوسائل مما لا يستعان بها في اللغة المنطوقة.[٣٧]

ويتجه المنهج السياقي إلى أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أي الطريقة التي تستعمل بها، والدور الذي تؤديه. وليس الطريق إلى معنى الكلمة رؤية المشار إليه أو وصفه أو تعريفه. ومن وجهة نظر رواد هذا المنهج أن معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات التي تقع مجاورة لها.[٣٨] يؤكد جون فيرث أهمية سياق الموقف (أو الموقف الخطابي) في فهم الأحداث اللغوية، ويدعو إلى اعتبار الظروف الاجتماعية في تحليلها.[٣٩] ويشير جون هاينس[٤٠] في تناوله لسياق الموقف إلى أن أي تركيب لغوي يختص بأنه مجموعة من الكلمات التي تناسب وظائف معينة، والأسماء التي تشير إلى بعض الأشياء والموجودات، والأفعال التي تشير إلى الوقائع والعلاقات، وهكذا..، ورأى أن المعتقدات من خصائص سياق الموقف، ويعني بذلك الطريقة التي بها يفهم الموقف ويستجاب له. فهناك فرق بين الموقف في حقيقته وبين نظرة المرء إليه. وإذا

---

36 H. G. Widdowson, Stylistics, in J. P. B. Allen & S. Pit Corder, (ed.) (1978) *Techniques in Applied Linguistics*, The Edingurgh Course in Applied Linguistics, vol. 3, Oxford University Press, pp. 202- 231.

37 Alan Davies & H. G. Widdowson, Reading and Writing, in J. P. B. Allen & S. Pit Corder, (ed.) (1978) *Techniques in Applied Linguistics*, Ibid., pp. 155- 201

٣٨ أحمد مختار عمر، **علم الدلالة** (الكويت: مكتبة دار العروبة، ط١، ١٩٨٢)، ص٦٨.

٣٩ ميشال زكريا، **الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣)، ص٢٨٢.

40 John Haynes, Ibid., p 4-5

كان لكل فرد تقويمه الخاص للموقف، وأمكن اختلاف فهم الموقف من ملاحظ إلى آخر، واختلاف فهم مشارك فيه أو نظرته إليه عن غيره، فهل يمكن معرفة الموقف معرفة موضوعية؟ ولذا لابُدّ من دراسة المعتقدات المؤثرة في فهم الموقف، وفي تحديد الظروف المحيطة به والوقائع الدائرة فيه.

أما مكونات الموقف فثلاثة:

١ـ مجال الخطاب: وهو الوضع الذي وقع فيه الخطاب، والموضوعات التي نوقشت فيه.

٢ـ فحوى الخطاب: ويعني العلاقات الشخصية بين المتخاطبين وسلوك بعضهم تجاه بعض في تلقي الخطاب، وغيره.

٣ـ نمط الخطاب: وهو وسيلة الاتصال، من كلام أو كتابة. وقد حاول جون هاينس[٤١] بيان العلاقة بين المعتقدات وسياق الموقف والنص من خلال مجال الخطاب في المخطط الآتي:

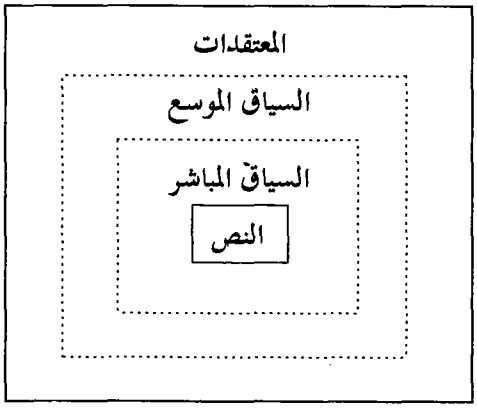

أما التحويليون فيحددون موضوع النظرية اللغوية بالإنسان المتكلم – المستمع السوي التابع لبيئة لغوية متجانسة والذي يعرف لغته معرفة جيدة. ويعتبرونه مصدراً للغة في أدائه الكلامي، ومن ثمّ يعدُّ موضوعاً لدراسة اللغة. ويتطلّب هذا أن يتوصل العالم اللغوي إلى المعرفة الضمنية باللغة، والخاصة بالمتكلم. فالإنسان المتكلم لغةً معينة يستطيع أن يفهم جمل لغته، ويستطيع أن يحكم على الجمل الجديدة من حيث الخطأ أو الصواب في التركيب.[٤٢]

---

41 John Haynes, Ibid., p 12-14.

٤٢ انظر: ميشال زكريا، المصدر السابق، (١٩٨٧)، ص١٥٦-١٥٧.

نحو منهج لغوي مقترح:

يعني وصف المنهج بـ "اللغـوي" تخصيصـه بـالبحث في النظـام الـذي يحكـم المـواد اللغوية. فإذا درست علاقة المواد اللغوية بالعالم الخارجي المتحكـم في هـذه المـواد وفي استخدامها فذلك علم اللغة الموسع. وينبغـي أن يهتـم علـم اللغـة، طبقـا لـرأي ألـين، بدراسـة شـيء موجـود، وذلـك بالعنايـة بوضـع العقـل، وأن يهـدف إلى فهـم طـرق استخدام الناس للغة في الاتصال، وأن يكون محور التركيز فيه على الأشياء الـتي تطبـع الكلام، بدلا من الكلام نفسه، وأن ينظر إلى الكلام من منطلق وظيفته في الإجـراءات الكبرى للاتصال الـتي تتخـذ موضوعـاً لـه في الغـالب تعديـلات مختـارة، أو تغيـرات للوضع الذهني للسامع.[٤٣]

لقد نشأ الدرس اللغوي الـتراثي في ظـل خدمـة القـرآن الكريـم والمسـاعدة علـى فهـم دلالات ألفاظه وتراكيبه وأساليبه، وتوسع هذا الدرس بعد ذلك ليشمل اللغة كلها، بل إن اللغويين مالوا عن بناء قواعدهم على الأسلوب القرآني وحده، وهو اتجاه يعـذر اللغويـون عليه، لأنهم كانوا يقعّدون اللغة العربية بصفة عامة، والمعلـوم أنـه لا يقصـد مـن النمـوذج اللغوي القرآني تقليده والالـتزام بـه، فيتقيـد بـه اللغويـون. ويغلـب أن تقتصـر الدراسـات اللغوية القرآنية على الدلالات الجزئية للآيات أو السور وعلى تحليـل الخصـائص التركيبيـة الإعرابية والصوتية والبيانية التي تقتصر على المستوى الشكلي، وانحصـر الاهتمـام بالقضايـا النظمية والسياقية والموضوعية والمسائل النفسية والاجتماعية والمفاهيم الحضارية في حـدود ضيقة، وكذلك في الدراسـات غـير القرآنيـة حيـث تسـتغل المعرفـة اللغويـة في الدراسـات الفقهية والأصولية والعقدية الفلسفية والتربوية الروحية وغيرها.

أما النظريات النحوية الحديثة فأغلبها أنحاء جملة، وتحاول هذه النظريـات وخاصـة الوصفية منها تحليل التراكيب اللغوية وتفسيرها بإبراز خصائصها وتفـاعل عناصرهـا، كما تحاول الأنحاء السياقية والوظيفية النظر إلى سياقات ورود الـتراكيب أو الوظـائف التي يقصد تحقيقها من بناء الـتركيب. ويُـرى مـن ناحيـة أخـرى أنهـا نابعـة مـن غـير نصوص الوحي، مطبقة في الأصل على نمـاذج مـن غـير لغـة هـذه النصـوص العربيـة، ولكن مناهجها في تحليل النص أو الخطاب وتحليل وظائف التركيب وسياقاتها مفيـدة

43 Victor H. Yngve, *On Achieving Agreement in Linguistics*, in J. P. B. Allen & S. Pit Corder, (ed.) (1973), Ibid., p. 179.

في تحديد نواحي التركيز في المنهج اللغوي المقترح للتعامل مع نصوص الوحي.

ويستدعي التعامل مع نصوص الوحي أن تكون الوحدة الأساسية للتحليل هي النص نفسه، وليست الجملة أو العبارة، ويستلزم ذلك مراعاة معاني الجملة في ضوء سياق ورودها في النص، والهدف من إيراده. وتستلزم طبيعة هذه النصوص أن يجاوز التحليل اللغوي المستوى السطحي والجزئي (الجملي، والنصي العادي، والوظيفي الجملي) إلى إبراز المقاصد التي وردت من أجلها.

المنهج اللغوي المقصدي:

تقتضي الاستفادة من المناهج اللغوية في التعامل مع نصوص الوحي تطوير منهج لغوي تطبيقي موسع يتكامل فيها مختلف مستويات التحليل اللغوي لتحقيق هذا الهدف، ويختار الكاتب أن يكون المنهج اللغوي المعتمد للتعامل مع نصوص الوحي مقصديا يستفاد من معطيات الدرسين اللغويين التراثي والحديث، إضافة إلى اعتبار مقاصد الشارع من نصوص الوحي. ويفهم من مصطلح (المنهج اللغوي المقصدي) التزاوج بين القضايا اللغوية الوصفية، والأسلوبية، والوظيفية، ومعرفة مقاصد النصوص القرآنية والحديثية. وهو منهج يمكن إدراجه ضمن الدراسات اللغوية الموسعة،[٤٤] ويمكن الإفادة منه في رصد التطورات الحديثة في مجال التحليل اللغوي.

تعرف المقاصد العامة للشريعة عند الإمام ابن عاشور بأنها المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. أما المقاصد الخاصة فهي الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة.[٤٥]

وعن علاقة المقصد بالدلالة أو المعنى، فمن الملحوظ أن لفظة " المعنى" من الألفاظ التي كثيراً ما يعبر بها عن المقاصد، وخاصة عند الفقهاء. فيقولون شرع هذا الحكم لهذا المعنى، أو المعنى المصلحي لهذا الحكم هو كذا.[٤٦] ويلحظ أن لفظة "المقصد" تحمل إيحاءات أخرى تضفي عليها أبعاداً من المعنى العام الوظيفي الحضاري للنص، والهدف

---

٤٤ ميشال زكريا، **الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام**، ص١٤٥.

٤٥ انظر: إسماعيل الحسني، **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور** (فرجينيا: المعهد العالي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ)، ص١١٧-١١٨.

٤٦ أحمد الريسوني، المصدر السابق، ص١٣.

الذي يرمي المتكلم إلى تحقيقه من حديثه.

تقتضي إقامة الاستدلال على مقاصد الشريعة التفريق بين نوعين من المقاصد:

أ ـ مقاصد الخطاب، وتعني أن نصوص الشريعة شاملة للأحكام، ولا سبيل إلى التعرف على هذا الشمول إلاّ باستحضار المقامات المختلفة التي وردت فيها هذه النصوص.

ب ـ مقاصد الأحكام، وهي الأقيسة الصحيحة المتوافقة مع مقاصد الخطاب.[٤٧]

وإذا اعتمدنا تعريف المقاصد بأنها: "الغايات المقصودة من الأحكام والمعاني المقصودة من الخطاب"،[٤٨] فسيتضح أن أحد قسمي المقاصد متعلق بالمعاني التي يقصدها الشارع من الخطاب، والتي تستحضر من مقامات النصوص، ولا سبيل إلى القسم الآخر إلاّ بفهم الخطاب، ومن ثَمَّ استقراء الأحكام وتعليلها.

وتجدر الإشارة إلى أن المعنى (أو السياق الدلالي) المرموز إليه بالعبارة اللغوية قد لا يكون موازياً للقصد الاتصالي للمتكلم، لأن قصده منقول بواسطة العبارة اللغوية، وليس المعنى أيضاً موازياً للتفسير النهائي الذي يصل إليه المستمع، لأنه يستخدم معلومات أكثر مما يرمز إليه المتكلم في العبارة. فقد نتحدث بصورة واضحة جداً تجعل قصد المتكلم قريباً من المعنى، ومن ثَمَّ يكون التفسير قريباً جداً من المعنى، أو موازياً، وقد نتحدث بصورة غير واضحة نسبيا بحيث لا يتفق القصد مع المعنى، فنترك للمستمع تفسير العبارة اللغوية والوصول إلى القصد منها بنفسه. والحالة الأخيرة هي الأكثر في أغلب صور تعاملنا اللغوي.[٤٩] ولعلنا نعبر عن هذه الفكرة كما ورد في التراث الإسلامي بخصوص التعامل مع نصوص الوحي، بأن النص يكون قطعي الدلالة إذا كان المعنى المستفاد من النص واضحاً غير محتمل، وكان تفسير القصد متقارباً بين الذين حاولوا تفسير النص. ويكون ظني الدلالة إذا لم يعبر النص عن قصد واضح مما يجعله محتملاً لتفاسير متعددة. ولكننا لا نبعد عن الحكم بالتقارب أو التوافق أو التباعد بين المعنى والقصد والتفسير تأثيرَ الأزمنة والأمكنة والوقائع والأشخاص والبيئات.

يستند التحليل الوظيفي إلى تحديد وظيفة عناصر التركيب والوظيفة الاتصالية

---

٤٧ إسماعيل الحسني، المصدر السابق، ص١٠٧-١٠٨ (نقلاً عن ابن القيم، **إعلام الموقعين**، ج١، ص٣٥٥-٣٨٣، ٢٦٧، وج٢، ص٥٢.

٤٨ المصدر نفسه، ص١١٩-١٢٠.

49 Simon C.. Dik, Ibid., p. 11-12.

للتركيب نفسه وفقا لمواقف تداوله، وهو تحليل ينظر إلى صلة التعبير بالموقف الذي قيل فيه، أما المقصد فهو أعم من ذلك. إن البحث عن المقصد يشمل الفحص عما تتضمنه العبارة اللغوية من حكمة، أو معنى، أو علة، أو غيرها، مما تحتمله العبارة، ولا تنافره. ويتم تحديد المقصد بالاستناد إلى فهم الرسالة الإسلامية بصفة عامة، والرؤية الموضوعية لصلة نصوص الوحي بعضها ببعض.[٥٠] ولا يصح تحليل جزء من هذه النصوص دون اعتبار أجزائها الأخرى، وفقاً للنظرة الموضوعية الشمولية للعلاقة بين النصوص وبين الوقائع التي تطبق فيها. وإذا كانت الوظيفة الاتصالية في الدرس اللغوي الحديث موضعية تتمحور حول الجملة أو النص، ويصف هذا الدرس المقدرة الاتصالية للمتكلم ـ المخاطب، فإن البحث عن المقصد يمتد إلى ما بعد الجملة والنص لينطلق من علاقة عناصر الخطاب بالمعنى إلى الغاية الحضارية العليا لنصوص الوحي.

تقوم نظرية المقاصد على التسلسل الفكري المنطقي الذي ينبع من النظر العقلي، ومن الأسس العقدية للإسلام، وكذلك من نتائج استقراء تفاصيل النصوص الشرعية.[٥١] وتبرز صلة هذه النظرية بالدرس اللغوي في أن من أنواع المقاصد لدى الشاطبي[٥٢] قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام، وهو مقصد يفيد أن القرآن الكريم منزل بلسان العرب، ولا يكون الفهم السليم للشريعة ومقاصدها إلاّ من جهة لسان العرب. ومن جانب آخر جعل الشاطبي من وسائل معرفة مقاصد الشريعة أن يفهم وفق مقتضيات اللسان العربي.[٥٣] فإذا كان القصد للإفهام من مقاصد الشريعة، وهذا أمر ضروري في التعامل مع النصوص، وكان فهم هذه النصوص وفق مقتضيات اللسان العربي من أهم كيفيات فهم المقاصد، فإن محاولة الاستفادة من التطورات الحديثة في الدرس اللغوي الوظيفي والسياقي تفيد دون أدنى شك في النظر في مقاصد الشريعة في ضوء المعهود من أساليب العرب، "لأن لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع... وإن الشريعة لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط".[٥٤]

---

٥٠ انظر في توضيح فكرة الرؤية الموضوعية في فهم القرآن الكريم: محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**: في مدارسة مع عمر عبيد حسنة (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١)، ص٨٣-٩١.

٥١ أحمد الريسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي** (الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٢)، ص١٧.

٥٢ أبو إسحاق الشاطبي، المصدر السابق، ج٢١-٢٢ و٥.

٥٣ المصدر السابق، ج٢، ص٦٥-٦٦، وج٤، ص٣٢٤.

٥٤ المصدر السابق، ج٤، ص٣٢٤.

تتصل نظرية المقاصد بالدرس اللغوي من جانب آخر من حيث اعتبار المصالح، أي تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم رعاية للمصالح التي يقصدها الشارع الحكيم،[٥٥] ومثله قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة، ولا يعقل أن يدخل المرء تحت أحكام شرعية لا يفهمها، وهو مقصد متصل بالقصد إلى الإفهام. ولا تستقل نصوص الوحي وبيانه عن الإفادة بالملابسات والظروف التي أدت إلى ورودها. وإن "قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع."[٥٦]

إن نصوص الوحي محدودة إذا قورنت بالنصوص اللغوية بصفة عامة، ولنصوص الوحي خصوصيتها الخطابية والأسلوبية، فالقرآن أرقى نموذج تعبيري عربي، كما أن جوامع الكلم النبوية متميّزة هي الأخرى من الناحية الأسلوبية والتركيبية. وبما أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف فإن التوفيق بين التباين اللهجي أعطى للأسلوب القرآني مرونة في استقاء هذه الخصائص دون تفريط في تحقيق الخصائص النموذجية لأي أسلوب لغوي عربي. وتأتي خاصية أخرى في أن نصوص الوحي غير محدودة بزمان أو مكان، وتلك خاصية تجعل للتحليل المقصدي أهمية فوق التحليل الوصفي التركيبي، أو الأسلوبي النظمي، أو الوظيفي الجزئي الموضعي، وتتيح له مرونة في تحديد المقصد من هذه النصوص. وحينئذٍ تصبح التحليلات اللغوية الأخرى وسيلة إلى التحليل اللغوي المقصدي. وبالإمكان تعميم هذا المنهج في تحليل التراكيب اللغوية بصفة عامة؛ إذ إن النص هو جوهر اللغة، ولا يقتصر هدفه على تحقيق الاتصال، بل يمتد إلى تحقيق القصد من هذا الاتصال. ولا أهمية للحدث اللغوي الصادر عن المتكلم إلاّ إذا حقق الهدف الاتصالي الذي قصد تحقيقه.

مستويات التحليل اللغوي المقصدي:

يتكون التحليل في المنهج اللغوي المقصدي من مستويين مهمين هما:

التحليل المعهودي والتحليل المقصدي.

أ ـ التحليل المعهودي

إن معرفة معهود العرب في الخطاب من مستلزمات التلقي القرآني، والتعامل مع نصوصه. وتستدعي معرفة هذا المعهود درجة من الإجادة والمعرفة في خصائص اللغة

---

٥٥ المصدر السابق، ج٢، ص٦٩ (هامش المحقق).

٥٦ أبو إسحاق الشاطبي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٣١.

العربية ودقائقها، وحياة العرب وأثر التعبيرات اللغوية في تفكيرهم واعتقاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية.[٥٧] ويعدّ حسن فهم النص النبوي وفق دلالات اللغة، وفي ضوء سياق الحديث، وسبب وروده من المبادئ الأساسية للتعامل مع السنة النبوية.[٥٨]

وتستدعي النظرة المعهودية وجود مرجعية لغوية يمكن الاحتكام إليها في فهم نصوص الوحي، ولا يقبل في هذا الصدد الاحتكام إلى الحدس اللغوي المجرد (أي السليقة اللغوية)؛ لما يفتقر إليه من أسس علمية توجه الباحث إلى أفضل تحليل للنص وأحسن ربط له بالواقع. وإن إصرار "تشومسكي" على ضرورة الاحتكام إلى "الحدس اللغوي" للناطق الأصلي باللغة لدى تحديد القواعد اللغوية يستلزم انتفاء المرجعية للحياة. ومنطلق الانتقاد الموجه لهذا الموقف أن الحدس ليس محدداً وغير قابل للقياس والضبط؛ مما يجعل الاستناد إليه فاقداً لخصائص المنهج العلمي.[٥٩] ولهذا لابُدّ من اعتماد معهود العرب في كلامهم من أجل فهم نصوص الوحي المنزل باللغة العربية.

ويأتي دليلاً على أهمية معرفة المعهود الخطابي فكرة **الاستلزام الحواري** في الدراسات الوظيفية الحديثة، والدراسات الأسلوبية العربية،[٦٠] ويعني الاستلزام الحواري (أو الخطابي) دلالة الجمل على معنى غير المعنى الذي يقتضيه محتواها. فإذا روعي ارتباط معاني الجمل بمواقف أدائها، لا تنحصر هذه المعاني فيما تدل عليه صيغ الجمل وتراكيبها الصورية من "استفهام" و "أمر" و "نهي" و "نداء" إلى غير ذلك من الصيغ المعتمدة في تصنيف الجمل إلى خبرية، أو إنشائية، أو غيرها. ويعني هذا أن التأويل الدلالي الوافي للجمل يكون متعذراً إذا اكتفي فيه بمعلومات الصيغة أو التراكيب وحدها.[٦١]

فمعنى العبارة اللغوية قد يكون صريحاً يفيد بمحتوى العبارة ومقتضاها من خلال الأداء اللفظي لها، وقد يكون المعنى ضمنياً عرفياً يستلزم قضايا منطقية مستفادة من التحديد المنطقي لمعنى العبارة، وقد يكون ضمنياً حوارياً يختص بمواقف خطابية تستلزم معنى

---

٥٧ انظر: محمد الغزالي، المصدر السابق، ص٨٨-٩١، و٢٣٧-٢٣٨.

٥٨ انظر: يوسف القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة النبوية** (مصر: دار الوفاء، ١٤١١هـ)، ص٣٠، ٤٠، ٣٣-٣٤، ١٢٥، ١٧٩.

٥٩ انظر: صبري إبراهيم السيد، **تشومسكي: فكره اللغوي وآراء النقاد فيه** (١٩٨٩)، ص٧٥-٧٦، ٢٦٥-٢٦٦.

٦٠ لخص محمد بن عبد الرحمن القزويني بعض ما أورده عبد القاهر الجرجاني والسكاكي عن استعمال أدوات الاستفهام لمعان غير استفهامية بحسب ما يناسب المقام. انظر: محمد بن عبد الرحمن القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٩١)، ص١٣٦-١٤٠.

٦١ أحمد المتوكل، **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي** (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط١، ١٩٨٦)، ص٩٣.

حواريا بعينه، أو معنى ضمنياً حوارياً يصلح تعميمه في مواقف خطابية متكررة.

ب ـ التحليل المقصدي

ينظر التحليل المقصدي في وظائف كل عنصر من العناصر المكونة للنص، من مفردات، وتراكيب، وأساليب من أجل تبيين المقصد من النص، كما ينظر في وظيفة النص بأكمله في تحقيق المقصد، وإيصال المتعامل مع النص إلى استجلاء المعاني التي يقصدها الشارع من سرد الخطاب، مما يعينه على استكشاف الغايات المصلحية للأحكام المبنية عليه. وفي هذا النظر تحقيق للرؤية الموضوعية الشمولية لنصوص الوحي.

تجدر الإشارة إلى أن التعرف على المقصد يقتضي الوعي بالأحداث التاريخية، والوقائع الاجتماعية المحيطة بتطبيق النص موضع التحليل، ويُعدّ هذا النوع من التحليل خطوة ضرورية في المنهج اللغوي المقصدي الذي ندعو إليه في التعامل مع نصوص الوحي، على الرغم من أن التحليل المعهودي خطوة أساسية أولية تفضي إلى التحليل المقصدي. وإذا كان التحليل المقصدي يجاوز التحليل الوصفي السطحي (البلاغي، المعجمي، الجملي، الصرفي، الصوتي) إلى أعماق النص، ويبتعد عن التحليل الفلسفي الجدلي، فإنه يحتفظ بمضمون النص ويرتفع به إلى التطبيقات المتجددة له. ويراعي من جانب آخر المسائل النفسية والاجتماعية والفكرية والثقافية الضرورية لفهم النص، وإبراز المقصد منه.

وكأني بالتحليل المقصدي وهو يعيد لنصوص الوحي حيويتها، ويثبت لها مواءمة للظروف الزمانية والمكانية المستجدة في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، ويحيي هذا المنهج بذلك دور الدرس اللغوي في فهم نصوص الوحي، مثلما كان له أثر كبير في استنباط الأحكام الشرعية[٦٢] من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والدفاع عن القضايا العقدية والمسائل الفكرية عبر التاريخ الإسلامي.

أسس التحليل اللغوي المقصدي:

يوصى باعتبار الأمور الآتية لدى إجراء التحليل اللغوي المقصدي:

ـ إن استنباط المقصد من النص هو الغاية من مراحل التحليل في المستويين المعهودي والمقصدي لهذا المنهج، وينبغي من ثَمّ أن يكون المحلل متمكناً من هذين

---

٦٢ انظر مثلاً: عبد القادر عبد الرحمن السعدي، **أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية** (الجمهورية العراقية: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ١٩٨٦).

الجانبين قادراً على تحقيق التكامل بينهما بمراعاة الضوابط اللغوية والزمانية والمكانية.

ـ يشمل البحث عن المقاصد باستخدام هذا المنهج التحليلي النصوص القطعية والظنية الدلالة، سواء كانت في الثوابت الدينية، أو المتغيرات الدنيوية، أو السنن الكونية.

ـ تحقق وجود علاقة من وجه معين بين المقاصد المتجددة من نصوص الوحي وبين المعهود اللغوي العام والشرعي، والمقاصد المتوافرة التي سبق إبرازها في التراث الفقهي أو الأصولي أو الإسلامي العام. ولعل هذا التحقق يعصم من الزيغ في تحديدها.

ـ ليس الهدف من إجراء مثل هذا التحليل الحكم على النصوص في توافقها مع العقل، أو درجة ثبوتها، أو ما سواهما من القضايا الجدلية في التراث الإسلامي.

ويشمل التحليل المعهودي الأمور الآتية:

١. بيان الخصائص التركيبية لعناصر النص: بتمييز الخصائص الصوتية المهمة، وبيان الخصائص الصرفية والنحوية لعناصر التركيب، وما يتصل بها من قرائن.

٢. بيان الخصائص الدلالية لمفردات النص في ضوء المعهود في استخدامها: ويشمل توضيح المعاني العرفية لمفردات النص، والمعاني الاصطلاحية لها.

٣. بيان الدلالات المستفادة من التراكيب، وعلاقتها بعناصرها مما يعطي المعنى العام للنص: ويتضمن ذلك دلالة كل تركيب في ضوء علاقته بغيره، وأثر كل عنصر من عناصر التركيب في ذلك، سواء أكانت مفهومة أو منطوقة، ظاهرة أو ضمنية، وبيان الوحدة الموضوعية بين التراكيب، وأوجه التماسك والتطابق بين التراكيب.

٤. بيان الخصائص الأسلوبية التركيبية والبلاغية للنص: ويحتوي بيان نوع الأسلوب النحوي المستخدم في التركيب، سواء كان عاما (اسميا أم فعليا، موجبا أم منفيا، إخباريا أم إنشائيا ...إلخ)، أم خاصا (شرطيا أم استفهاميا أم طلبيا أم غيرها)، وتوضيح نوع الأسلوب البلاغي المستخدم، من تشبيه أو مجاز أو كناية أو بديع أو قصر أو استفهام، أو توكيد، أو إيحاء، غيرها.

٥. بيان أوجه استخدام تركيب النص، أو أجزائه وفقاً لاستخدامه المعهود لدى العرب: أي توضيح أوجه استخدام التركيب (أي توزيعه) في أداء المعنى المقصود من النص، وبيان أنواع المعنى، وإيحاءات اللفظ، ودلالة الأساليب النحوية على المعاني غير الأساسية التي وضعت لها.

ويهتم التحليل المقصدي بالآتي:

١. بيان سياقات استخدام المفردات والتراكيب الواردة في النص: ويتضمن تحديد أنماط السياق المؤثر في استخدام المفردات والتراكيب للمعنى الخاص أو العام المقصود.

٢. بيان الوظائف التداولية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية المتحققة باستخدام المفردات والتراكيب: ويحتوي توضيح الوظيفة التي تستخدم المفردات والتراكيب لأدائها في مختلف مواقف الاتصال اللغوي، وبيان الأثر النفسي لاستخدام المفردات والتراكيب في النص، والأثر الاجتماعي الذي قصد تحقيقه من الاتصال اللغوي بالنص، والمسائل الأخلاقية التي يشتمل عليها النص.

٣. الربط بين الوظائف التي تؤديها هذه المفردات أو التراكيب في مواقف خطابية متعددة: ويعني النظر في صلة الوظائف التي تؤديها المفردات والتراكيب في موقف النص المحدد بمواقف أخرى يستخدم فيها النص (المفردات والتراكيب) من أجل تحقيق وحدة موضوعية كلية لنصوص الوحي.

٤. إبراز عناصر النص التي قد تنبئ بالمعنى الخاص بصاحب النص، ووجهة نظره في المقصود منه: ويحتوي على إبراز علاقة عناصر الخطاب بمعنى النص، والمفردات والتراكيب التي تحمل معاني وإيحاءات بموقف صاحب النص من القضايا المضمنة فيه من خلال هذه العناصر. ولهذا صلة بالمعنى الكامن وراء المعنى الظاهر في النص.

٥. الفحص عن المقصد الذي يرمي إليه النص، واقتراح صياغة جديدة مفسرة له مستفادة من المعلومات المتوافرة طبقاً للغاية الحضارية والمقاصد الخاصة والعامة للنصوص: ويشتمل على إبراز المقاصد العامة من استخدام التركيب، أو المفردة، أو النص بأكمله، والمقاصد الخاصة من استخدامها، وذلك في ضوء المفاهيم الحضارية لنصوص الوحي، والمصالح، أو المفاسد التي يبينها النص، ومحاولة اقتراح صياغة جديدة مفسرة تتوافق مع المقاصد المستنبطة منه.

نموذج تحليلي*

النص: قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ **الصَّلَاةَ** إِنَّ **الصَّلَاةَ** تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)

* ملحوظة: يمثل هذا النموذج محاولة لتطبيق الأسس المقترحة للتحليل وفقا للمنهج اللغوي المقصدي.

التحليل المعهودي:

الخصائص التركيبية:

ـ الصوتية:

التخلص من التقاء الساكنين بكسر الميم في (أقم).

ـ الصرفية:

أقم: حذف عين الفعل (الواو) من (يقوم) في صيغة فعل الأمر المسند للمفرد المخاطب المذكر لوقوعها قبل الميم الساكنة تخلصاً من التقاء الساكنين.

تنهى: فعل مضارع للماضي (نهتْ) من (نهى).

ـ النحوية:

و: حرف عطف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب يفيد مطلق الضم والجمع.

أقم: فعل أمر مبني على السكون، المقدر على آخره منع من ظهوره الكسر العارض تخلصاً من التقاء الساكنين (م) و (اللام في أداة التعريف)، والفاعل مستفاد من الشخص المتضمن في الفعل (ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت).

الصلاة ١: مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره.

إنّ: حرف نسخ مبني على الفتح لا محل له من الإعراب وتوكيد للإسناد في الجملة الاسمية بعدها.

الصلاة ٢: اسم (إن) ، مسند إليه منصوب.

تنهى: الجملة من الفعل المضارع والفاعل (الضمير) المستفاد من التاء، جملة فعلية في محل رفع خبر (إنّ)، (مسند في موقع الرفع).

عن الفحشاء: شبه جملة (جار ومجرور) متعلق بـ (تنهي).

و: حرف عطف.

المنكر: اسم معطوف على (الفحشاء) مجرور مثله.

الخصائص الدلالية العامة لمفردات النص:

أقم الصلاة: أدّها بشروطها المعروفة على الدوام.

الصلاة: مصطلح شرعي يدل على ركن من أركان الإسلام تفتتح بتكبيرة وتختتم بتسليمة. والصلاةُ لغةً ـ في هذا السياق: الدعاء وطلب الرحمة.

تنهى: تمنع وتنفّر وتزجر عن شيء.

الفحشاء: البذيء المستنكر من القول والفعل، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب، وكل ما نهى الله عز وجل عنه.

المنكر: المرفوض من قول أو فعل، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه.

عن: حرف جر يفيد التجاوز والابتعاد.

دلالات التراكيب المكونة للنص وعلاقات عناصرها:

ـ الدلالات:

أقم الصلاة: أمر بإقامة الصلاة بوصفها عبادة مفروضة على المخاطب.

تنهى: تفيد الصيغة وقوع النهي اعتيادياً عن المتعلق بالفعل.

الفحشاء والمنكر: تعليل لفرضية الصلاة بذكر عوائدها الحسنة، ومن ثَمَّ الترغيب فيها.

الصلاة تنهي: تجسيد للصلاة بإسناد النهي إليها نظراً لآثارها، وما تغرسه في المصلي من وازع ديني.

الفحشاء والمنكر: تقرير لأثر الصلاة في نفس العبد المؤمن من قيام بالأعمال الطاهرة الزكية "جميع الطاعات" واجتناب جميع المعاصي والذنوب والآثام قولاً وفعلاً، واللفظان مترادفان.

أل: (المعرفة) تفيد التعريف في (الصلاة١) و(الفحشاء) و(المنكر) أي المعروفة، وتفيد العهدية في (الصلاة٢).

ـ العلاقات:

يقرر التركيب فرضية الصلاة، ويحث على الالتزام بها بالتعليل بالمصلحة الخلقية.

يوجد تماسك بين مكونات التركيب بتكرار لفظة (الصلاة) في الجملتين، ويفهم تطابقهما بالوصل بينهما بدون أداة اكتفاءً بالتكرار. وهناك تماسك في الربط بين الألفاظ الثلاثة: الكتاب والصلاة والذكر، وتتضمن لفظة (الذكر) إحالة على كل من الكتاب والصلاة.

ورد تأكيد للمعنى المستفاد من أداء الصلاة في الجملة المعطوفة على التركيب المدروس (أي: ولذكر الله أكبر).

ـ الوحدة الموضوعية:

يقرر النص وظيفة الصلاة وتلاوة الكتاب وذكر الله مع استحضار القلب فيهما في

العقيدة والعلاقة الاجتماعية.

الخصائص الأسلوبية التركيبية والبلاغية للنص:

ـ الأسلوبية التركيبية:

الصيغة فعل الأمر (أقم) تنقل الطلب الأمري. والجملة إنشائية.

أداة التوكيد والتكرار يؤكدان معاً الإسناد في الجملة التعليلية.

جملة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) جملة موجبة تركيبية (أي أن أحد ركنيها جملة صغرى).

ـ البلاغية:

(الصلاة تنهى): مجاز يفيد تشبيه الصلاة بالشخص المحتسب الواعظ الناهي عن الرذائل، نظراً لما تغرسه من وازع ديني في نفس الإنسان.

تدل صيغة الأمر على المعنى الأساسي.

ـ يفيد تكرار (الصلاة) مرة باللفظ، وأخرى بالضمير تنويها بها.

ـ يفيد ترادف (الفحشاء) و (المنكر) تأكيداً لأثر الصلاة في سلوك المصلي.

ـ لربط الجملة الطلبية بالجملة الإخبارية الموجبة المؤكدة أثر في الترغيب في الصلاة.

أوجه الاستخدام المعهودي للنص أو أجزائه:

أقم: تستخدم صيغة (أفعل) عند إطلاقها طلب وقوع الفعل وفقاً لطبيعة الفعل المطلوب وقوعه. وتفيد معاني أخرى بالتقييد. والإقامة هنا معنوية تفيد التحسين والتعديل، وقد تعتبر لفظية بالنظر إلى أن القيام ركن أساسي في أداء الصلاة.

إن الصلاة تنهى: تستخدم (إن) لتأكيد إسناد خبرها إلى اسمها، أي لتوكيد إسناد النهي عن الفحشاء والمنكر إلى إقامة الصلاة.

الفحشاء والمنكر: تصنيف للأفعال السيئة (الرذائل) التي ينبغي أن يتخلى عنها الإنسان قولاً وفعلاً.

ـ النص:

ورد التركيب المدروس في سياق يتطلب الإخلاص في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، أي بتكرار صيغة الأمر (اتل، أقم)، وتكرار لفظ الجلالة (الله)، وإيراد (يعلم) و(أوحي) و (أكبر).

التحليل المقصدي:

سياقات استخدام مفردات النص وتراكيبه:

ـ يفيد السياق وجوب إقامة الصلاة على الوجه المعهود (أقم).

ـ يستفاد من السياق أن الخطاب موجّه لأي إنسان مسلم أو يتوقع أن يسلم، فالمخاطب هو النبي، ومعه قومه، وغيرهم.

ـ تفيد الجملة الاسمية المنسوخة الحكمة من إيجاب إقامة الصلاة ﴿إن الصلاة تنهى..﴾

ـ يفيد السياق ارتباط وجوب الصلاة بوجوب تلاوة القرآن لمن يتقنها ﴿أوحي إليك﴾ وعظمة ذكر الله ﴿ولذكر الله أكبر﴾، وإحاطة علم الله بأفعال عباده ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾.

الوظائف التداولية والنفسية والاجتماعية:

تداولية: طلب تنفيذ المخاطب للأمر بالصلاة، وتفيد نصوص كثيرة وجوب هذا الطلب. و(إقامة الصلاة) هي الحدث العملي والمطلوب ظهور دورها في اجتناب الفحشاء والمنكر.

نفسية: بيان وظيفة تزكية النفس لإقامة الصلاة (تنهى عن الفحشاء)

اجتماعية: الإفادة بوظيفة الصلاة وأثرها في تنقية العلاقات الاجتماعية من المفاسد (والمنكر)

أخلاقية: توضيح الرسالة الأخلاقية لأركان الإسلام بربط الصلاة بالتنفير عن الأفعال غير المرغوب فيها، وذكر فرضيتها في سياق يحمل على الالتزام بها والإخلاص فيها.

الربط بين الوظائف حسب المواقف:

ـ تمثل إقامة الصلاة إيفاءً بالحق الإلهي، وتحقيق الصلاح النفسي، والنقاء الاجتماعي، والالتزام الخلقي، وقد ارتبطت إقامة الصلاة بواجبات ومسؤوليات أخرى.

ـ يؤكد النص صلة امتناع المصلي عن الفحشاء والمنكر بمواظبته على الصلاة، وحرصه على الالتزام المخلص بأركان الإسلام وفعل الخيرات.

ـ من العناصر المنبئة بالمعنى الخاص صيغة (أفعل) الأمرية التي تنبئ بفرضية الصلاة، وتنبئ وسائل التأكيد في الجمل الاسمية وأدوات التوكيد بأهمية المراقبة الإلهية في أدائها، ويثبت هذا المعنى اختتام الآية بإفادة إحاطة علم الله بكل ما يصنع عبادة.

مقصد النص الخاص والعام:

المقصد الخاص: إفادة فرضية الصلاة وفرضية حسن أدائها.

المقصد العام: تحقيق قرب العبد المصلي من ربه من خلال المداومة على إقامة الصلاة والاستمرار في التخلي عن المعاصي، وبذلك يتحقق التعايش السلمي بين أفراد المجتمع البشري.

المعنى الإجمالي للآية: (صياغة مقترحة) (إن الصلاة مفروضة عليك، ويلزمك حسن أدائها وفق شروطها والإكثار من الذكر والتلاوة فيها بهدف تمثل الواجب وتحقيق التزكية الروحية والتعايش الاجتماعي المهذب.)

خاتمة:

نظر الباحث في المحتوى المعرفي للغة مشيراً إلى ما قد يترتب على اعتبار اللغة العربية مصدراً للمعرفة الإسلامية، على الرغم من وجود العلاقة الطرّديّة بين فهم نصوص الوحي ومعرفة هذه اللغة، وقد تم إبراز الأهمية اللغوية الاتصالية للسنة النبوية في فهم القرآن الكريم، وتوضيح إمكان اختلاف المتلقين للحدث أو النص اللغوي في فهمه باختلاف تبصرهم بالمعلومات التداولية المحيطة بهم. ونظراً لتميز نصوص الوحي بملابسات خاصة، فإن الباحث يرى ضرورة تبني منهج لغوي خاص يقدم بياناً شافياً للخصائص التركيبية والأسلوبية لهذه النصوص، ويعطي بياناً للغايات الحضارية التي من أجلها وردت هذه النصوص؛ وذلك لما للدرس اللغوي من أهمية في قراءة النص، وإعادة قراءته، أو إعادة صياغة الرسالة التي يريد المتكلم أو الكاتب إيصالها إلى القارئ أو السامع. ولا يمكن في هذا الصدد إغفال الإسهام الثري الذي قدمه التراث اللغوي العربي الإسلامي، ولكن معطيات الدرس اللغوي الحديث تؤدي دوراً مهماً في تحديد أوجه التعامل مع نصوص الوحي، لما فيه من بناء على العطاء الفكري للعلماء المسلمين، أو اكتشاف لمناهج تحليل جديدة لا ترتبط بالضرورة بنصوص اللغة التي طبقت فيها لدى ظهورها.

ولهذا يدعو الكاتب إلى تبني منهج لغوي مقصدي يحلل هذه النصوص تحليلاً معهودياً مقصدياً؛ تحقيقاً للتكامل بين الدرسين التراثي واللّغويّ الحديث، ويهتم التحليل المعهودي ببيان الخصائص التركيبية، والدلالية، والأسلوبية، والتوزيعية، كما يعتني التحليل المقصدي بالمسائل السياقية، والتداولية، والاجتماعية، النفسية، والأخلاقية، والمقصدية. وقد قدّم الباحث نموذجاً تحليلياً شاملاً وفق هذا المنهج المقترح في الصفحات السابقة. ولعله بهذا يكون قد ساعد في اكتشاف مناهج تحليل جديدة قادرة على إبراز دور الدرس اللغوي في فهم نصوص الوحي.